فصل من «الوجود والعدم»

الحرية والمسؤولية

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي

صدر هذا الشهر عن « دار الاداب » كتاب سارتر الشهير « الوجود والعدم » . وقد رأينا ان ننشر فيما يلي هذا الفصل الهام منه .

على الرغم من ان التأملات التالية تهم خصوصا رجل الاخلاق ، فقد رأينا انه لن يكون من غير المفيد ، بعد هذه الاوصاف والبراهين ، ان نعود الى حرية ما هو ــ لذاته وان نحاول ان نفهم مــاذا تمثل هذه الحريــة بالنسبة الى مصير الانسان .

ان النتيجة الجوهرية لملاحظاتنا السالفة ، هي ان الانسان ، لما كان محكوما عليه ان يكون حرا ، فانــه يحمل على عاتقه عبء العالم كله : انه مسئول عن نفسه بوصفه حالة وجود . ونستعمل هنا كلمة : « المسئولية » بمعناها المبتذل وهو « الشعور بان المرء هو الفاعل الذي لا شك فيه لحادث او شيء » . وبهذا المعنى فان مسئولية ما هو ــ لذاته مسؤولية مرهقة ، لانه هو من بواسطته يصنع بنفسه ان ثم عالما ، ولما كان هو الذي **يجعل نفسه موجودا**، مهما يكن الموقف الذي يوجد فيه، فان ما هو ــ لذاته ينبغي ان يتخذ تماما هذا الموقف مع معامله من المضادة الخاصة، حتى لو كان غير محتمل ، وعليه ان يتخذه مع الشعــور المستكبر بانه هو فاعله ، لان اسوأ المضايقات او اسوأ التهديدات التي تهــدد باصابة شخصي لا معنــى لهــا الا بواسطة مشروعي ، وعلى اساس الالتزام الذي هو انا هي تظهر . فمن الحماقة اذن ان نفكر في الشكوى ، لانه لا شيء اجنبيا قد قرر ما نشعر به ، وما نعيشه ، وما نحن نكونه . وهذه المسئولية المطلقة ليست قبولا : انها مجرد مطالبة منطقية بنتائج حريتنا . فما يحدث لي يحدث لي بنفسي ولا استطيع ان اتأثر به ولا ان اتمرد عليه ولا ان اذعن له . ومن ناحية اخرى فان كل ما يقع لي هو لي ، وينبغي ان نفهم من هذا ، اولا ، انني دائما على مستوى ما يقع لي ، بوصفي انسانا ، لان ما يحدث لانسان بواسطة ناس اخرين وبواسطته هو لا يمكن الا ان يكون انسانا . وافظع الاوضاع في الحرب ، وابشع الوان العذاب لا تخلق حالة لاانسانية للامور ، وليس هناك موقف لاانساني ، وفقط بالخوف ، والهرب ، واللواذ بالتطرفات السحرية **اقرر** امر ما هو غير انساني ، لكن هذا القرار انساني ، واتحمل كامل مسئوليته . لكن الموقف **لــي** ايضا لانه صورة اختياري الحر لذاتي ، وكل ما يقدمه لي هو لي من حيث ان هذا يمثلني ويرمز الي . ألست انــا الذي اقرر معامل المضادة للاشياء وحتى عــدم امكان توقعها وذلك بتقريري بنفسي ؟ وهكذا لا توجد **اعراض** (احداث) في الحياة ، والحادث الاجتماعي الــذي ينفجر فجأة ويسوقني لا يأتي من الخارج ، فاذا طلبت للحرب ، فهذه الحرب هي حربي انا ، انها على صورتي ، وانا استحقها . انا استحقها اولا لانني كان في وسعي دائما ان افلت منها. بالانتحار او الفرار من الخدمة العسكرية : وهذه الممكنات النهائية هي التي يجب دائما ان تكون حاضرة لنا حيــن يتعلق الامر بالنظر في موقف . فكوني لم افلت ، معناه انني **اخترتها** ، وربما كان ذلك عن ضعف او جبن امــام الرأي العام ، لاني افضل بعض القيم على قيمة رفض القيام بالحرب (احترام الناس لي ، شرف اسرتي ، الخ.) . وعلى كل حال فالامر يتعلق باختيار . وهذا الاختيار سيتكرر فيما بعد حتى نهاية الحرب ، ولهذا ينبغي ان نوافق على كلمة جول رومان (١) J. Romains : « في الحرب لا توجد ضحايا بريئة » . فاذا كنت قد فضلت الحرب على الموت او العار ، فكل شيء يجري كما لو كنت احمل على عاتقي كل مسئولية هذه الحرب . ولا شك ان غيري هم الذين اشعلوها واعلنوها ، وقد يميل المرء الى ان يعدني مجرد شريك . لكن فكرة الاشتراك complicité هذه ليس لها غير معنى قانوني ، اما هنا ، فلا تقوم لها قائمة ، لانــه توقف علي انه بالنسبة الــي وبواسطتي لا توجد هــذه الحرب ، وانا قررت ان توجد ، ولم يكن هناك اي قسر واكراه ، لان القسر (الاكراه) لا يمكن ان يكون له سلطان على الحرية ، ولم يكن لدي اي عذر ، لانه ، كما قلنا وكررنا في هذا الكتاب ، خاصة **الآنية** هي انها لا عذر لها . فلم يبق عندي اذن الا ان ادعى (اطالب بــ) هذه الحرب . وفضلا عن ذلك ، انها لي ، لانه بسبب انها تنبثق فــي موقف اعمل على وجوده ولا استطيع ان اكتشفه فيه الا بالتزامي معها او ضدها ، فاني لا استطيع بعد ان اميــز

(١) جول رومان : « ذوو النوايا الطيبة » : «التمهيد لمعركة فردان».

الان بين الاختيار الذي اقوم به لذاتي والاختيار الذي اقوم به لها : فان اعيش هذه الحرب ، هو ان اختـــار نفسي بواسطتها وان اختارها بواسطة اختياري لنفسي . ولا مجال للنظر اليها على انها « اربـــع سنوات اجازة » او « تأجيل » ، « كرفـــع الجلسة » ، لان الجوهري فـي مسئولياتي كان في مكان اخر، في حياتي الزوجية والاسرية والمهنية . لكن في هذه الحرب التي اخترتها ، اختار نفسي كل يوم واجعلها لي وانا اصنع نفسي . فاذا كان ينبغي ان تكون اربع سنوات خاوية فانا الذي اتحمل مسئوليتها . واخيرا ، كما بينا في الفقرة السابقة ، كل شخص هـــو اختيار مطلق لذاته ابتداء من عالم من المعارف والتكنيكات التي يتخذها هذا الاختيار ويوضحها معا ، وكل شخص هو مطلق ينعم بتاريخ date مطلق ولا يمكن ان يفكر فيه في تاريخ أخر . فمن ازجاء الوقت (١) ان نتساءل ماذا كنت سأكون لو ان هذه الحرب لم تندلع ، لانني اخترت نفسي كواحد من المعاني الممكنة للعصر الذي افضى بطريقة غير محسوسة الى الحرب ، وانا لا اتميز من هذا العصر نفسه ، ولا يمكن ان انقل الى عصر اخر دون تناقض . وهكذا انا هذه الحرب التي تحصر وتحد وتفهم العصـر الذي سبقها . وبهذا المعنى ينبغي ان نضيف الى العبارة التي اوردناها منذ قليل وهي : « لا توجـد ضحايا بريئة » ـ العبارة التالية لزيادة تحديد مسئولية ما هو ـ لذاته : « يكون للمرء الحرب التي يستحقها » . وهكذا انا حر حرية شاملة ، لا اتميز من العصر الذي اخترت ان اكون معناه ، ومسئول مسئولية عميقة عن الحرب وكأنني انا الذي اعلنها ، ولهذا ينبغي علي الا اشعر بأي تأنيب ولا اسف ، كما انني بغير عذر ، لانه منذ اللحظة التي انبثقت فيها الى الوجود ، وانا احمل عبء العالم انا وحدي، دون ان يستطيع اي شيء او اي شخص ان يخففه عني .

ومع ذلك فان هذه المسئولية هي من نمط خـاص جدا . اذ قد يجاب علي فيقال : «انني لم اطلب ان اولد»، وهذه طريقة ساذجة في التوكيد على وقائعيتنا . انـني مسئول عن كل شيء ، اللهم الا عن مسئوليتي نفسهـا ، لانني لست الاساس في وجودي . فكل شيء يجري اذن كما لو كنت مرغما على ان اكون مسئولا . انـني **مهمل** (١) في العالم ، لا بمعنى انني ساظل متروكا وسلبيا في عالم معاد ، مثل لوح الخشب الذي يعوم على الماء ، بل بالعكس، بمعنى انني اجد نفسي فجأة وحدي وبدون عون ، منخرطا في عالم احمل كل المسئولية عنه ، دون ان استطيع، مهما فعلت ، ان انتشل نفسي ، حتى ولا لحظة واحدة ، مـن هذه المسئولية ، لانني مسئول حتى عن رغبتي نفسها في التهرب من مسئولياتي ، وان اجعل نفسي سلبيا فـي العالم . وان ارفض ان أؤثر في الاشياء وفي الاخرين ، هذا ايضا هو ان اختار نفسي ، والانتحار ضرب من ضروب « الوجود ـ في ـ العالم » . ومع ذلك فانني اجد مـن جديد مسئولية مطلقة من كوني وقائعيتي ، اعني كـون ميلادي لا يمكن ان يدرك مباشرة بل وانه لا يمكن تصوره، لان واقعة ميلادي هذه لا تبدو لي ابدا خامة غليظة ، بل دائما من خلال اعادة بنـاء مشروعي لوجودي ـ لذاتـه . اني اشعر بالعار لكوني ولدت او انا ادهش لهذا او اغتبط له ، او اذا حاولت انتزاع حياتي من نفسي ، اؤكد انني احيا واعد هذه الحياة سيئة . وهكذا ، بمعنى ما ، انـا **اختار** ان اولد . وهذا الاختيار نفسه متأثر كله بالوقائعية. لانني لا املك الا ان اختار ، لكن هذه الوقائعية بدورها لن تظهر الا من حيث انني اتجاوزها الى غاياتي . وهكذا ، الوقائعية هي في كل مكان ، لكنها لا يمكن ادراكها (الامساك بها) ، اذ لا القى ابدا غير مسؤوليتي ، ولهـذا فانـي لا استطيع ان اتساءل : « **لماذا ولدت** ؟ » وان العن يـوم ميلادي او اعلن انني لم اطلب ان أولد ، ان هـذه المواقف المختلفة تجاه ميلادي ، اعني تجاه واقعة انني احقق حضورا في العالم ، ليست شيئا اخر غير طرق لاعتناق هذا الميلاد بملء مسئوليتي وان اجعله ملكي ، وهنا ايضا لا القى غير ذاتي ومشروعاني ، حتى انه اخيرا اهمالي (تركي) ، اعني وقائعيتي ، تقوم فقط في كوني محكوما علي بان اكـون مسئولا عن نفسي مسئولية كاملة . وانا الوجود الذي **هو** مثل الوجود الذي وجوده موضوع تساؤل في وجوده . وهذا الهو est لوجودي كأنه حاضر ولا يمكن الامساك به (ادراكه) .

وفي مثل هذه الاحوال ، لما كان كل حادث في العالم لا يمكن ان ينكشف لي الا **كفرصة ومناسبة** (فرصـة تهتبل ، او **تفوت** ، او تهمل ، الخ .) ، او خيرا من هذا ، ما دام كل ما يقع لنا يمكن ان يعد **حظـا** chance ، اعني انه لا يمكن ان يظهر لنا الا كوسيلة لتحقيـق هذا الوجود الذي هو موضوع تساؤل في وجودي ، وما دام الاخرون ، بوصفهم علوات ـ معلوة ، ليسوا هم ايضا غير **فرص وحظوظ** ، فان مسئولية ما هو ـ لذاته تمتد الى العالم باسره بوصفه عالما ـ مسكونا . وهكذا يدرك ما هو لذاته نفسه في القلق ، اعني كوجـــود ـ ليس اساسا لوجوده ، ولا الوجود الغير ، ولا للكائنات التي في ـ ذاتها التي تكون العالم ، لكنه مرغم على ان يقرر (يفصل في) معنى الوجود ، في داخل ذاته وفي كل مكان خارج ذاته. والذي يحقق في القلق حاله **كموجود** قذف به فيمسئولية ترتد حتى على تركه واهماله ، لا تأنيب ولا اسف ولا عذر لديه ، انه ليس بعد الا حريـــة تنكشف تمامـا بنفسها ، ووجودها يقوم في هـذا الانكشاف نفسه . لكننا ، كمـــا لاحظنا في مستهل هذا الكتاب ، نهرب في غالب الاوقات من القلق في سوء النية .

---

(١) « اي من الفضول الزائف » .

(٢) بمعنى متروك ، سائب délaissé .